

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

أَوْلِيَاءَ: أعوانا توادونهم وتناصرحونهم.

أَنْ تُؤْمِنُوا: لإيمانكم أو كراهة إيمانكم.

يَثْقَفُوكُمْ: يظفروا بكم. أو يصادفوكم.

وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ: يمدوا إليكم.

عندما قرر رسول الله ﷺ غزو مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وضع خطته بمتتهى السرية، حذراً من أن تتسرب الأخبار إلى قريش فيتأهبوا للمقاومة، وعندئذ وجه أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، وكان ممن شهد بدرأ، رسالة سرية إلى أهل مكة يخبرهم فيها بما عزم عليه الرسول، وقد أراد بذلك أن يصنع معهم جيلاً يرضيهم عنه فلا ينال بنيه وأقرباءه المقيمين بمكة منهم أذى، ولكن الله - جلّت قدرته - أعلم رسوله

بذلك عن طريق الوحي، فأرسل ﷺ من أدرك حامل الرسالة وانتزعها منه قبل أن يصل إلى مكة ..

إن كل عملٍ من هذا القبيل لا يتفق مع مقتضيات الإيمان بصورة مطلقة؛ فالصراع بين الإسلام وغير الإسلام إذا بلغ ذروته التي تتكون عندها جبهتان منفصلتان تحارب أحدهما الأخرى؛ فإن من واجب أهل الإيمان حينئذ أن يقطعوا كل ما يربطهم بالجبهة غير الإسلامية من صلات المودة أو التعاطف، حتى لو كانت الجبهة غير الإسلامية تضم أهلهم وذوي قرابتهم . إن الإيمان بالحق، وإقامة صلة ما بالمناوئين للحق ضدان لا يجتمعان معاً في قلب واحد !!

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦٦﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٨﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: قدوة حميدة في التبري من الضالين .

بُرَاءٌ مِنْكُمْ: أبرياء منكم.

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا: إليك رجعنا تائبين.

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: مفتونين بهم معذبين بأيديهم.

عرض سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالة التوحيد على أهل بيته أول الأمر بأسلوب النصيح والموعظة ، ولكنهم لما أبوا عن الإيمان وأصروا على العناد والتعنت، رغم قيام الحجة عليهم، فارقهم معلناً براءته منهم بصيغة حاسمة جازمة ، بيد أنها كانت مرحلة قاسية جداً ، فإن إعلان البراءة كان معناه دعوة أولئك الجاحدين المعاندين للحق ليتناولوه هو ومن آمن معه بكل ما يستطيعون من ألوان الأذى والاضطهاد ، ويلجأوا، بعدما انهزموا في مواجهة الدليل، إلى التنكيل بالمؤمنين وإذلالهم بوسائل القوة والقهر ، وهذا هو السر أن إبراهيم سأل الله بوجه خاص وهو يدعوه بعد ذلك في ضراعة قائلاً: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، أي لا تسلط الكفار علينا ولا تمكنهم من رقابنا ليتخذوا منا عرضة لممارساتهم العدوانية الظالمة .

وإظهار البراءة من ذوي بالأرحام والأقارب ليس إظهاراً للعداوة بالمعنى المعروف، إنما هو تعبير نهائي حازم عما يتمتع به الداعي من ثقةٍ و يقينٍ، وعليه فإن تبرؤ الداعي هو الآخر يحمل في طياته جانباً من الأهمية الدعوية، إذ يحدث أحياناً أن الشخص الذي لم يكن قد تأثر مطلقاً بلغة " النصيح والبلاغ "، قد تنجح لغة " الثقة واليقين " في إثارة اهتمامه واجتذابه بالتالي إلى حظيرة الإيمان !

﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠﴾

أَن تَبَرُّوهُمْ: تحسنوا إليهم وتكرموهم.

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ: تفضوا إليهم بالقسط والعدل.

وَوَظَاهَرُوا: عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم.

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ: أَنْ تتخذوهم أولياء.

يأمر الإسلام أتباعه أَنْ يتعاملوا مع الناس كافة بالعدل والإنصاف حيثما كانوا، وبغض النظر عما إذا كان الفريق الآخر من معسكر العدو أو غير العدو. أما صلة المودة والولاء فإنه لا يسمح بإقامتها مع كل أحد دون تحفظ، وإنما تجوز الموالاة في أحد وضعين لا ثالث لهما: أَنْ يكون مَنْ تواليه موالياً لله، أو لا يكون، على الأقل، عدواً لله !!

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَلُّوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٠ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝٢١﴾

فَأَمْتَحِنُوهُنَّ: فاخبروهن وكان ذلك بالتحليف.

أَجُورَهُنَّ: مهورهن.

بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ: بعقود نكاح المشركات.

فَاتَكُمْ شَيْءٌ: انفلت أحد بردة.

فَعَاقَبْتُمْ: فغزوتهم فغنمتم منهم.

تتناول هاتان الآيتان بالشرح بعض قوانين الإسلام المتصلة بالقضايا العائلية التي قد تنشأ بين دار الإسلام ودار الحرب في ظروف وملابسات خاصة، كالتي نشأت في أعقاب صلح الحديبية .

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ قَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٠﴾

بُهْتَانٍ: بالصاق اللقطاء بالأزواج.
يَفْتَرِينَهُ: يخترقنه.

تتضمن هذه الآية بيان الشروط التي لا بد من إقرارها لأي امرأة تريد الدخول في الإسلام ، ومن بين هذه الشروط هناك شرطان أساسيان هما : عدم الإشراك بالله، وعدم معصية الرسول ، وأما مطالب الدين الأخرى سواء المذكورة منها في هذا النص وغير المذكورة، فهي تندرج تلقائياً تحت هذين الشرطين الأساسيين!

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَپْسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ٢١﴾
لَا تَتَوَلَّوْا: لا تتخذوا أولياء.

قَوْمًا: هم اليهود، أو الكفار عامة.

إن اليهود المؤمنين بالكتب السماوية، والكفار الذين لا يؤمنون بها إطلاقاً، كلاهما

سواء فيما يتعلق بالآخرة، فالكفار لا يعلقون رجاءً ما بالموتى لاعتقادهم أن أمرهم قد انتهى وأنهم لن يُبعثوا الآن من قبورهم مرة أخرى ، وهكذا يكون حال أولئك المؤمنين أيضاً الذين لا يلبثون أن يصابوا، على مر الزمن، بالغفلة والقساوة وبلادة الإحساس شأن اليهود، بحيث لا تعود حياتهم العملية - رغم إقرارهم بالآخرة بألسنتهم - تختلف عن حياة الكفار الصرحاء في شيء !!